



تأتي الهجمة البربرية الجديدة على الغوطة قرب دمشق بعد الإخفاق الروسي الكبير، حيث لم يحقق مؤتمر سوتشي (للحوار الوطني السوري) شيئاً يذكر؛ فاللجنة الدستورية لم تعط أي أهمية عالمياً كما عُولّ عليها. بل إنّها هُمشت قبل انعقاده، حيث طرحت الولايات المتحدة وحلفها ورقة اللارقة، أي ورقة سياسية جديدة، وربما لأول مرة، وكذلك لم تسمح للروس والإيرانيين والنظام بتغيير الحدود المرسومة بدقة في دير الزور، عبر قتل مئات المقاتلين الذين أرسلوا لاختبار تلك الحدود. وأيضاً صاغت أميركا رؤية جديدة للوضع السوري، طرحها وزير الخارجية، ريكس تيلرسون، ويفهم منها بداية تقارب مع تركيا، حيث صمنت عن غزوها عفرين، وإعادة تشكيل واقع جديد في كل سوريا. يريد الأميركيان تهميش الوجود الإيراني، وطرح مستقبل النظام الحالي على الطاولة، وتفكيك كل الاتفاقيات بين روسيا وتركيا وإيران. وبالتالي أصبح على روسيارسم مناطق نفوذها، وفرض سيطرة كاملة على العاصمة وأريافها، وهذا من أسباب الهجمة على الغوطة، على الرغم من أنها مشمولة باتفاقية خفض التوتر بضمانة مصرية. وهذا يظهر أن الاتفاقيات الحقيقة لا تتم في أستانة أو مصر أو جنيف، أو حتى من خلال الأوراق التي تطرحها روسيا أو أميركا منفردة أو مع حلفائها؛ فالاتفاقيات تكون بين روسيا وأميركا، وبعد ذلك يتم توزيع الحصص على الأطراف الإقليمية.

دفع تخوّف الروس من الحضور الأميركي الكبير في سورية، ومن التقارب مع تركيا، روسيا إلى التوافق مع تركيا على معركة عفرين، وإخراج مسلح حزب الاتحاد الديمقراطي (الكردي) من المدينة، ولا مشكلة إن أعاد النظام فرض سيطرته

عليها، وسيكون ذلك مخرجاً للجميع، بدلاً من الحرب المستمرة هناك! فالنظام ذاته تابع للروس، أي لحلفاء الأتراك، لكن تركيا تكون قد أنهت الطموح الكردي، وسيطرت على الحدود، وربطت البلدات المحيطة بعفرين بجرايس والباب، ولاحقاً بإدلب. وبالتالي، تكون الحدود مُؤمّنة لصالح تركيا. وتأتي عملية رسم مناطق النفوذ في إدلب، لتأمين المنطقة الشرقية والشمالية بالكامل، وهو ما سيوحّد الدول المُحتلة لسوريا ضد المجموعات التي لم تذعن بعد، أو لتصفية الجيوب الجهادية المتبقية.

تأتي الهجمة على الغوطة ضمن هذا الإطار؛ فروسيا تريد فرض سيطرتها عليها وعلى القلمون الشرقي، وحمص وحماة، ووصولاً إلى طرطوس واللاذقية، أي ت يريد إغلاق أي احتمالاتٍ يمكن أن تدخل أميركا من خلالها إلى الغوطة والقلمون الشرقي بالتحديد. الخطوط التي ترسم بالدم والنار والقتل والإجرام هي سياسات الدول الاستعمارية بكل بساطة، وهي كوارثٌ إنسانية، لا يمكن أن يتحسّسها إلا أبناء البلد والمتضامنون مع ثورتهم، وهو شعورٌ أغلبية السوريين للكارثة التي بدأت في الغوطة منذ أيامٍ سابقة، وتتكرّر نفسُها هنا وهناك، وفي كل المدن السورية.

مشكلة الروس أن منظورهم لسوريا قائم على أرضية التخوف من تجربة أفغانستان من ناحية، وهزيمتهم فيها، وسحق الثورة السورية كما فعلوا في غروزني والشيشان. رفضهم التعاطي مع الواقع أنه ثورة، وضد النظام الاستبدادي والإفقاري، واعتبار الوضع مجموعاتٍ إرهابية ضد نظام شرعي. رؤيتهم الفاقرة هذه، وتجاهلهم الدور الإقليمي والدولي الواسع في سوريا، هو ما أوهمهم بإمكانية الانتصار السريع. وفي هذا اعتمدوا على السياسة الأوّلية في مكافحة الإرهاب، وتسليم سوريا لروسيا والانسحاب من أفغانستان والعراق. وبالتالي، ليس للأميركان مطامح حقيقة في سوريا.

روسيا التي جاءت عدة أشهر في سبتمبر/أيلول 2015، كما أعلنت، تكاد تدخل في العام الثالث لوجودها، وتحوّل إلى دولةٍ محتلةٍ من جملة احتلالات لسوريا. وبالتالي الحرب الدموية التي بدأتها في إدلب ثم حلب، والآن على الغوطة، وقبل ذلك درعاً وريف حماة ودير الزور، لا تعطيها سيطرة أكبر من بقية دول الاحتلال. ومن هنا، نرى تخوّفاً روسيّاً كبيراً من سياسات أميركا الجديدة، سواء ما ذكره تيلرسون، أو ورقة اللاورقة، أو التقارب مع تركيا.

مناطق النفوذ، كما تتوضع، تعني أن الروس لم يعودوا المسيطرین الأساسيین، وأن أميركا بالتحديد، بنت ثمانى قواعد عسكرية، وتدعم قوات حزب الاتحاد الديمقراطي الكردية، ليس لترحل من سوريا بالانتهاء من مسلحي تنظيم الدولة الإسلامية (داعش). إذاً روسيا تخوف كثيراً، وتجد نفسها تتخطّي كل مخططاتها؛ فمقررات أستانة تأتي من التوافق مع تركيا وإيران، ومؤتمر سوتشي فشل كما قلنا، والنظام لا يستجيب لها استجابة كاملة، وتحاول إيران دائمًا فرض سياساتها، وليس آخرها مطالباتها المتكررة بحصصها في الاقتصاد السوري، باعتبارها أهم داعم له طوال سنوات الثورة. ينفرد الأميركيان، بشكل شبه كامل، في شمال سوريا وشرقها، وكذلك لهم حصة في درعاً وغرب دمشق، وبالتالي لم تنته الحروب بعد.

لن نتكلّم عن الرؤية الروسيّة الإجرامية للثورة السورية ولسوريا، حيث صرّح، وزير الخارجية، سيرغي لافروف، أن مصير الغوطة يمكن أن يكون مصير حلب. وأكّد التصرّيف نفسه مبعوث الأمم المتحدة، ستيفان دي ميستورا؛ عكس ذلك هناك تصريحات دولية كثيرة تندّد بالعملية، لكنّها بلا أية قيمة تذكر. يدلّ هذا على أن المتدخلين بالشأن السوري لم يتتفقاً بعد على حلٍ واضح للكارثة السورية.

تبدو روسيا، كما أوضحت وضئها الحالى، كأنها تسابق الزمن، لكي لا تُفرض عليها مفاوضات صعبة، وتكون فيها أحد الأطراف، وليس الطرف الرئيسي فيه. لن تدخل مناطق أميركا ضمن مناطق خفض التوتر، ومناطق خفض التوتر برعاية دول عديدة، والأضعف فيها جميعاً الغوطة وأرياف حمص الشمالي. وبالتالي، ستحاول روسيا عبر حلفائها إضعاف هذه المناطق وفرض شروط مجحفة عليها، وبما يدخلها ضمن مناطق نفوذ روسيا أكثر فأكثر.

ستفشل روسيا في مساعيها، فهي تفرضها بالقتل والتمهير، لكنها لن تصمد مع أية محاولات للاستقرار، حيث ستكون روسيا بمثابة قوة احتلال في نظر أغلبية السوريين. يرسم الروس مناطق نفوذهن نعم، لكنهم سيخسرونها مع بداية أي حل سياسي؛ ليس روسيا فقط، بل كل المحتلين لسوريا. وتنطلب هذه الفكرة نصاً آخر.

المصادر:

العربي الجديد